*المحاضرة الثامنة .*البنية الثقافية والتنشئة وأثرهما على الوحدة الوطنية في العراق

لا شك في أن الوحدة الوطنية لأي بلد تزداد قوة وصلابة بازدياد درجة تطوره الثقافي ، أي ثقافة وطنية تتجاوز الخطوط والحدود الجزئية الضيقة الخاصة بالطائفة والعرق ، وتساعد على التواصل الحي بين السكان . وفي حالة العراق الراهنة يمكن أن نتساءل هل هناك اندماج ثقافي أو ثقافة سياسية وطنية ، أم انعزال طائفي أو إثني؟ .

الفرع الأول : ماهية الثقافة السياسية .

الفرع الثاني:واقع الثقافة السياسية في العراق.

 ماهية الثقافة السياسية (Political Culture)

 تظهر أهمية الثقافة السياسية عبر ارتباطها بتوجهات الأفراد وآرائهم و معتقداتهم وسلوكهم ومواقفهم تجاه نظامهم السياسي . فبناء منظومة التوجه والرأي والمعتقد والسلوك والموقف بناءً إيجابياً تجاه النظام السياسي يعمل على حل مشكلة "الوحدة الوطنية" التي تعاني منها بعض المجتمعات وخاصة النامية منها ، كما أن بقاء واستقرار النظام السياسي يعتمد على علاقته مع الأفراد ومدى قبولهم ورفضهم إياه، وقد يؤدي رفض الأفراد التعاون مع النظام السياسي بمؤسساته المختلفة الى إثارة مشكلة الشرعية التي تسبب الانهيار التدريجي للنظام السياسي.وتعد الثقافة السياسية جزءاً من الثقافة العامة في المجتمع ، لذلك لا يمكن تحديد مفهوم الأولى دون الإلمام بمفهوم الثانية . مفهوم الثقافة (Culture) :

إن مفهوم الثقافة بسبب حداثته وعدم رسوخه في التركيبة الاجتماعية للشعوب القاطنة في البلدان النامية لم يرق الى مستوى الاهتمام الجدير به ، من حيث تنميته من الناحية العملية او البحوث والدراسات من الجانب النظري.فلم يزل مفهوم الثقافة يعتريه بعض الغموض ولا يوجد تعريف جامع مانع وشامل له، إذ اختلف علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع على إيجاد تعريف موحد له ، وينبغي علينا الاعتراف أن مفهوم الثقافة يصعب تحديده.

ولقد طرحت في الأدبيات العربية العديد من التعريفات الخاصة بالثقافة ، وكل يتناولها من الزاوية التي يستطيع عن طريقها حل إشكالية البحث الذي يعرضه ، مع تأكيد مفهوم الثقافة ومقارنتها بالحضارات في أغلب هذه الدراسات التي طرحت ، حتى أن بعضهم لم يجد مناصاً من الاستناد الى المرجعيات الغربية ، ولاسيما أولئك الأنثروبولوجيين الذين اختصوا بهذه الجوانب المهمة من التطور الإنساني والثقافة حسب تعريف "إدوار تايلور" :(هي ذلك الكل الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون ، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع. وفقاً لهذا التعريف تعد الثقافة عبارة عن كل مركب من أجزاء وعناصر متلازمة مع بعضها ، وهي عملية مكتسبة للمواطنين بشكل مستمر من قبل وسائل التنشئة والتربية والتعليم في المجتمع ، كونه عضواً فيه ، وكذلك تتأثر ببيئته الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في المجتمع.

وعرّفها الباحث "جابي روشيه" بأنها:(مجموعة من العناصر التي لها علاقة بطرق التفكير والشعور والسلوك ، وهذه الطرق صيغت في قواعد واضحة والتي تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معاً ، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة).

 ويرى المفكر العربي "محمد عابد الجابري" الثقافة أنها ( ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات التي تحتفظ للجماعة البشرية بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تصورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها على التواصل والأخذ والعطاء).

ويعرف عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي "كليفوردغيرتز" الثقافة بكونها : (نظام من التصورات الموروثة التي يعبر عنها بأشكال رمزية والتي بواسطتها يتواصل البشر ويطورون معرفتهم عن الحياة ومواقفهم من الحياة) .

ويرى الأستاذ "مازن إسماعيل الرمضاني"أن مفهوم الثقافة لا يخرج عن أسلوب الحياة الذي تتبناه مجموعة بشرية معينة سواء أدركت الثقافة بهذا المعنى أم آخر قريب منه ، فإنها تقوم على مكونات متعددة متداخلة للتمييز بين ميادين ذهنية ومادية وخصوصيات قومية والتعبير عن وظائف اجتماعية تشكل أسلوب يميز هذه المجموعة البشرية عن سواها كهوية وخصائص ثابتة نسبياً.أما الأستاذ "برهان غليون" فيرى أن الثقافة تعني : (جملة الأنماط والقيم والقواعد والأعراف والعادات التي تبدع وتنّظم لدى جماعة ما حقل الدلالات العقلية والروحية والحسية ، وتحدد بعد ذلك لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكانياتها البشرية والمادية ونوعية استهلاكها لبيئتها). خصائص الثقافة :

لكل مجتمع بشري ثقافة خاصة به يتميز بها ، وعلى الرغم من الاختلاف بين الثقافات، إلا أن هنالك بعض الخصائص العامة تشترك فيها كل الثقافات .. وهذه الخصائص هي :

1. أنها إنسانية : أي خاصة بالإنسان فقط فهي من صنع الإنسان.
2. مشبعة لحاجات الإنسان .
3. أنها مكتسبة : يكتسبها الإنسان بطرق مقصودة أو غير مقصودة عن طريق التعلم والتفاعل مع الأفراد الذين يعيش معهم .
4. أنها قابلة للانتقال والانتشار: عن طريق اللغة والتعليم ووسائل الاتصال الحديثة ، وتنتقل من جيل الى جيل آخر ، وفي المجتمع الواحد من فرد إلى آخر .
5. أنها تطورية : أي أنها تتطور نحو الأحسن والأفضل .
6. أنها متغيرة : فهي في نمو مستمر وتغير دائم. فأي تغيير في عنصر من عناصرها يؤثر على غيره من العناصر .
7. أنها تكاملية : تشبع الحاجات الإنسانية وتريح النفس الإنسانية .لأنها تجمع بين العناصر المادية والمعنوية .
8. أنهاتنبؤية : بما أنها تحدد سلوك وأسلوب الأفراد فإن بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد معين ينتمي الى ثقافة معينة .
9. أنها تراكمية : إن الثقافات ذات طابع تاريخي تراكمي عبر الزمن ، فهي تنتقل من جيل الى الجيل الذي يليه ، بحيث يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الذي قبله وهذا يساعد على ظهور أنساق ثقافة جديدة.

 مفهوم الثقافة السياسية (Political Culture) :

 يعد مفهوم الثقافة السياسية من المفاهيم الحديثة نسبياً في عالم السياسة ، ولم يظهر إلا في العام(1956) ،عندما استعمل"غابرييل الموند" هذا المفهوم بعداً من أبعاد تحليل النظام السياسي ، وكل نظام سياسي وحسب ما يراه"ألموند" يترسخ حول أنماط محددة من التوجهات التي تضبط التفاعلات التي يتضمنها النظام الاجتماعي ، وبالمثل تكون الثقافة السياسية بمثابة التنظيم غير المتقن للتفاعلات السياسية.

 وتعد الثقافة السياسية جزءاً من الثقافة العامة ، وهناك ارتباط وثيق بين المفهومين ، وقد أهتم العلماء بشكل واضح بمفهوم الثقافة الكلي ، معتبرين أن الثقافة السياسية هي ثقافة فرعية وأنها تتأثر بالثقافة الأشمل ، لذلك نجد "دونالد ديفين" يقول :(إن الثقافة السياسية ليست هي كل ثقافة المجتمع ، وانما الجانب السياسي من ثقافته). فالثقافة السياسية تعد فرع من فروع الثقافة ، مثل(الثقافة الدينية ،والثقافية الاقتصادية، والثقافية الرياضية ، والثقافة العلمية ، ألخ) . وتعرف الثقافة السياسية كما حددتها "دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية الثقافية السياسية" على أنها:(مجموعة الاتجاهات والمعتقدات التي تنظم وتعطي معنى للنظام السياسي). أما تعريف "غابرييلالموند" للثقافة السياسية فيعرفها بأنها:(التوجهات والمواقف تجاه النظام السياسي ومكوناته المختلفة ، والمواقف تجاه دور الفرد في النظام) وحسب "ألموندوباويل"يمكن قياس الثقافة السياسية لأي مجتمع من المجتمعات وتحديد المواقف السياسية عن طريق المستويات الثلاثة للنظام السياسي:

1. المواقف السياسية على مستوى النظام السياسي ككل : أي وجهات نظر المواطنين والقادة المتعلقة بالقيم والأنظمة التي تجعل النظام السياسي يتماسك.
2. المواقف السياسية على مستوى العملية السياسية : أي جانب مدخلات النظام : ميول المواطنين للمشاركة في العملية السياسية مثل : تقديم المطالب ، ومقترحات السياسة العامة من الأسفل الى أعلى الهرم والمساهمة بشتى الصور .
3. المواقف السياسية على المستوى السياسي : أي جانب مخرجات النظام :توقعات وردود أفعال المواطنين والقادة حول السياسات المتبعة من قبل الحكومة، وماهية الأهداف التي يجب رسمها وكيفية تنفيذها.

 أنواع الثقافات السياسيـة :

 قسّم العديد من الباحثين الأولين الثقافة السياسية وفق مدارسهم الفكرية على ثلاثة أنواع رئيسة هي:

1. الثقافة السياسية التقليدية (الضيقة) : Parochial political Culture))

2- الثقافة السياسية الرعوية (ثقافة الخضوع) : (Subjection political Culture)

3-الثقافة السياسية المشاركة (المساهمة) : Participant Political Culture) )

 ترتكز ثقافة المشاركة في الأنظمة الديمقراطية التي تؤمن بإسهام الجماهير في مؤسسات النظام السياسي.وفي هذا النوع من الثقافة السياسية يؤمن المواطنون بأن لديهم فرصاً أكبر للمشاركة في الحياة السياسية الفعالة عبر الانتخابات والتظاهرات ، وطلبات الإطاحة بأعضاء البرلمان أو الاستجواب عن طريق ممثليهم في المؤسسات السياسية الديمقراطية أو الأحزاب السياسية أو جماعات الضغط المتعددة، وتوجد هذه الثقافة في المجتمعات الأكثر تطوراً التي وصلت الى مرحلة الدولة الوطنية أو دولة المؤسسات ، كما أن العواطف والولاءات والمشاركة لا تتجه نحو أنظمة فرعية أو ثانوية كـــ (العشيرة أو الطائفة)، بل تتجه نحو النظام كله.

إن هذه الأنواع الثلاثة من الثقافة السياسية لا توجد مستقلة أو منفصلة بعضها عن البعض الآخر ، بل قد تكون متداخلة فيما بينها ، ولكن قد تبدو واحدة منها مهيمنة ، أو قد تبدو بعضها متعايشة مع الأخر على وفق المستويات الثقافية والحضارية للسكان في

واقع الثقافة السياسية في العراق

 شك في أن الثقافة عامل مؤثر – رغم أنه ليس الوحيد- في السلوك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، بل هناك من يذهب إلى أن الحقيقة المحورية هي كون (الثقافة) وليست (السياسة)من يحدد مدى نجاح مجتمع ما ، بل وحتى تقرير مصير الثقافة ذاتها من حيث المحافظة عليها وبقاءها أو تغييرها.

 واذا فهمت الثقافة بصورتها المبسطة بأنها طريق أو أسلوب في الحياة ، وأنها تعبر عن نمط حياتي لمجموعة إنسانية، برزت إشكالية التكوين في الثقافة العراقية، إذ يعرف الشعب العراقيبأنهيمتاز بالتنوع الثقافي الذي يعكس في إحدى صوره حالة من حالات الرقي الحضاري، ولكن المشكلة تكمن في التغّير الذي عاشته الثقافة العراقية المتنوعة، وغابت معه إمكانية الدخول في عمليات تكامل ثقافي، مما عرض الثقافة العراقية إلى حالة من المسخ الحضاري ، إذ غيّبت ، وتم تضييع بعض الثقافات الفرعية التي تصب في الثقافة المشتركة ، وأسهم ذلكفي ولادة جيل لم يستطع أن يعــي ويعيش حــالة التمازج الحضاري.

 وبالحديث عن الثقافة السياسية في العراق ، فإن المجتمع العراقي هو مجتمع أبوي يتكون من خليط من البنى التقليدية بما تحمله من علاقات وقيم قبلية وعشائرية ودينية وطائفية مستمدة من روابط الدم والمعتقد ، وبنى حديثة تترابط فيما بينها لتنتج بنية اجتماعية جديدة ، وتسود في ظل هذه البنى قيم الخضوع والطاعة والعلاقات الهرمية ،بينما تبقى الحرية والمساواة والتعاون قيماً لفظية فاقدة للمفعول على الصعيدين الاجتماعي والنفسي ، مما سيولد أشخاصاً في هذا المجتمع يخافون السلطة مثلما يخافون الحياة ، الأمر الذي سيمّكن الفئة الحاكمة من السيطرة على هذا النوع من المجتمع وإخضاعه لسلطتها.

 وقد عاش العراق ابان الدولة العثمانية في أواخر عهدها حالة من التخلف في مختلف المجالات ، فقد ورث تراكُمات ثقيلة نتيجة سياسيات الحكم العثماني آنذاك.فخضوع العراق للاحتلال العثماني على مدى أربعة قرون من الزمن اتسمت بسلطات سياسية متخلفة ، فضلاً على طبيعتهُ التي تتصف غالبيتها بقيم العصبية والقبلية والاحتكام الى قوانين العرف العشائري ، وجعلت من ولاءات الأفراد ولاءات للعشيرة والقبيلة والدين والمذهب ، ويبدو أن الثقافة السياسية في العراق أخذت بالتحّول السريع بعدالاحتلال الأمريكي(2003) من ثقافة الخضوع الى ثقافة المشاركة . بيد أن هذا التحّول لم يكتب له النجاح بشكل كامل ،إذاصطدمبعدة عقبات كان أبرزها:

1- تأثيرات الحرب الأمريكية على العراق : إن التأثيرات الكبيرة التي تركتها هذه الحرب من حجم التدمير الواسع النطاق وتفكيك أجهزة الدولة الرسمية ومؤسساتها وما اقترن بها من فوضى وعدم استقراروانفلات أمني ، وتعطيل قوى الاحتلال للعملية السياسية ، كلها تأثيرات عرقلت دون شك تأسيس ثقافة سياسية مشاركة في العراق .

2- فرض حركات الإسلام السياسي وجودها على الساحة السياسية العراقية ، فهذه الحركات التي توظف الدين في عملها السياسي والتي ترتكز على الاستنفارالأيديولوجي الديني في مقارعتها للقوى المناوئة لها عبر اعتمادها خطاباً مغرقاً في أيديولوجيته، مما أضعف من قدرتها على فتح خطابها الحزبي على آفاق وطنية أرحب ، وضيّق من إمكانياتها في بناء علاقات تعتمد الحوار والتحالف سواء مع الحركات والأحزاب الأخرى المختلفة معها أو مع الدولة .

3-عدم قدرة معظم الأحزاب السياسية العراقية الارتقاء الى مستوى المسؤولية الوطنية بسبب تشرذمها ، وافتقار بعضها الى قواعد شعبية ، وافتقادها القدرة على بناء إجماع وطني حول بعض القضايا الجوهرية ، مما أسهم في بروز دور التكوينات العشائرية والقبلية.

1. دونية الولاء للدولة على ما سواها من ولاءات ، إن حلقة الانتماءات الأضيق من الدولة مثل الانتماء للأسرة والعشيرة والقبيلة والطائفة وغيرها أصبحت من القوة ،إذ أخذت تتنافس مع الولاء للدولة ، فالمواطن بات يعرف عبر طائفته لا عبر وطنه .

5- عدم رغبة المجموعات المكونة للمجتمع العراقي بالاندماج الكامل لدرجة الذوبان لتشكيل مجتمع جديد قائم على أساس المواطنة التي تعتمد على مبدأ المساواة للجميع ، فكل مجموعة تفضل الاحتفاظ بخصوصيتها وتراثها وطريقتها الخاصة في الحياة.

 مما تقدم يبدو أن البيئة الثقافية في العراق تعاني من بعض الثغرات ، مثل تبرير تجاوزات السلطة السياسية ، وعدم القبول بالتعددية الثقافية ، وصعوبة قبولها لتجاوز أطر الماضي ، وأزمة عدم الثقة بين الحكام والمحكومين ، كذلك سيادة القيم العشائرية والقبلية ، كونه مجتمعاً مغلقاً اجتماعياواقتصاديا،(هذه البيئة) لا تتوائم مع أسس بناء الدولة المدنية الحديثة في العراق. فالثقافة السياسية السائدة في العراق أقرب الى أن تحل فيها قيم الطاعة محل الحرية ، والطائفية بدل الوطنية.

فالتغيير السياسي الذي حصل في العراق بعد (2003) يستلزم توجيه سياسات المؤسسات المختصة بالتنشئة الاجتماعية – السياسية نحو إيجاد ثقافة سياسية تهدف الى تطبيق وتحقيق ثقافة الوحدة الشاملة عبر تضمين برامج مؤسسات التنشئة الاجتماعية–السياسية بقيم ومشاعر وأفكار وآراء ترتكز على تحقيق الوحدة الوطنية ، ووضع برامج للثقافة السياسية تكون التنشئة الاجتماعية– السياسية الوطنية حاضرة فيها ، أي تعليم واكتساب القيم المعززة للوحدة الوطنية والنهوض بها.

وعليه فإن الثقافة السياسية وسيلة من وسائل الاندماجوالتلاحم بين الأفراد والجماعات ضمن النظامقائمة على أساس التوجهات الثقافية المتنوعة والمتماثلة والمتناسقة والملائمة للمؤسسات ، وعلى هذا الأساس فأنها تعّبر عن توجهات النظام السياسي بكليته عن طريق الأدوار الموجودة في المجتمع التي تنعكس بالضرورة في مؤسساته ، وبالتالي تؤثر هذه الأخيرة في المواقف السياسية التي يتخذها الفرد أو المجموعة ، وهنا تكمن أهمية الثقافة السياسية في تلاحم ألوان الطيف السياسي العراقي وتفاعله ووحدته الوطنية. من خلال تحديد مكونات التنشئة السياسية يمكننا معرفة طبيعة النظام السياسي وخصائصه وأهدافه كما يمكننا تحديد العلاقة بين مكونات النظام السياسي للبلد. وثقافة التنشئة السياسية السائدة تساعد على فهم نمط العلاقة بين مكونات النظام السياسي القائم في المجتمع, من خلال قراءة الأطر الفكرية والإيديولوجية، ومن هذه المكونات هي:

1- ثقافة الفرد المكتسبة: إن ثقافة الفرد المكتسبة هي إحدى مكونات التنشئة السياسية، ومن خلالها يستطيع الفرد أن يكتسب التنشئة من ثقافة وسلوك وقيم المجتمع الذي يعيش فيه. ويكتسب الفرد تلك الثقافة في السنوات المبكرة من حياته وتنغرس في ذاته وقد تتطور تلك القيم والسلوكيات نتيجة تطور المجتمع ونظامه السياسي وتختلف أنماط التنشئة السياسية للفرد نتيجة لاتساع مداركه وتنوع ثقافاته فيدخل في مرحلة التقييم والمقارنة بما كسبه واكتسبه من التجربة العمرية ومجالها المعرفي ومراحلها ومحطاتها، والتأثير الثقافي للمدرسة والعلاقات مع الأسرة والمجتمع ووسائل الإعلام والاتصال .

2- ثقافة الفرد الذاتية: إن ثقافة الفرد الذاتية تختلف من إنسان لآخر تبعاً لشخصيته الذاتية ومحيطه الأسري والمجتمعي وتحصيله العلمي وثقافته المنتقاة، مما يجعل تلك الثقافة جزء من شخصيته فيدافع عنها ويهتم بأمرها، والثقافة السياسية للفرد تتمحور حول مجموعة من الضوابط المعرفية والآراء السياسية والاتجاهات الفكرية والقيم الاجتماعية تتبلور في علاقة الفرد مع سلطة النظام الحاكم، وهذه الثقافة الذاتية تحكم تصرفات الفرد داخل النظام السياسي سواء أكان حاكما أم محكوما، كما تؤثر في سلوك الفرد السياسي داخل إطار المجتمع.

3- ثقافة المؤسسة السياسية: ثقافة المؤسسة السياسية من المكونات الرئيسية للتنشئة السياسية سواء تلك التي تتبناها الدولة "ثقافة النظام" أو الأحزاب السياسية، وهذه الثقافة لا تخرج عن الأطر الفكرية والفلسفية للأنظمة والأحزاب داخل السلطة وخارجها، ومن خلال تلك الثقافة تحاول الأحزاب والأنظمة الحاكمة أن تفرض قيمها وأيديولوجياتها سواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية، رأسمالية أم اشتراكية، وعلى الرغم من أن هناك فرق شاسع بين التنشئة السياسية في المجتمعات الديمقراطية والمجتمعات الدكتاتورية، إلا أن الهدف هو واحد من حيث المرجعية الثقافية للفرد في المجتمع باعتبارها احد مكونات التنشئة السياسية وثقافة التنشئة السياسية في الأنظمة الديمقراطية تحرص على تحديد الوظائف السياسية للفرد في المجتمع على أساس الإيمان بضرورة الولاء للوطن والتعلق به، لكون الإحساس بالانتماء للوطن من أهم المعتقدات السياسية للتنشئة السليمة، كما تحدد ثقافة التنشئة الأطر العامة للعمل السياسي وتغذية المواطن بمعلومات سياسية واجتماعية واقتصادية من واقع البيئة السياسية.